

أنت "مبدع" رغم أنك، ومشروع "إنسان حر" أيضا (3 من 3)



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2020/03/28

السنة الثانية عشرة - العدد: 4591

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

تجليات العملية الإبداعية:

إن فصل العملية الإبداعية عن ناتجها المعلن: في شكل معروف من التشكيل المحكى أو المسموع أو المرئي، له فضل التعرف على الطبيعة البشرية في جوهرها المبدع بذاته. إنه يؤكد موقفا أساسيا لصاحب هذه المداخلة من حيث أن:

"كل إنسان هو مبدع بما هو إنسان، حتى لو لم ينتج ناتجا يسمى إبداعا أصلا".

العملية الإبداعية، بعد فصلها عن الناتج الإبداعي الشائع، تحتاج إلى مزيد من التعرف في تجلياتها الأخرى. إن هذا قد يساعد على قبول هذا الفصل بينها وبين ناتجها الشائع، بما يتيح لنا قبول التفرقة لطبيعة ما يسمى الحرية كما وردت في هذه المداخلة.

دعونا نتعرف أكثر على بعض نتائج العملية الإبداعية بعيدا عما يسمى الناتج الإبداعي المسجل تشكيلا. إن الإبداع يكون إبداعا حتى لو لم تصحبه إنجازات محددة معلنة، جديدة أو مضافة. صحيح أنه قد يكون إبداعا منقوصا أو قصير العمر (مثل إبداعات خيال الأطفال) لكنه يتصف بأغلب مقومات الإبداع.

إن مسار النمو الذاتى ليس إلا إعادة تشكيل المادة الجينية بما أتيح لها من مناهج تربية سلوكية تسمح بهذا التشكيل المتبادل طول الوقت مع ما يصلها من معلومات وخبرات من خارجها (المحيط).

لا تحتاج عملية الإبداع - حتى نعرف بها- إلى أن نحقق أدوات محددة للتعبير عنها. قد تكون أدوات التعبير ليست كافية لإتاحة الفرصة للتعبير الإبداعي المناسب، لكن يظل الإبداع إبداعا.

إن حذق استعمال الأداة قد يسمح بتنمية مهارة ما، لكن المهارة -في ذاتها- مهما بلغ إتقان ناتجها، ليست مرادفة للإبداع. إنك حين لا تمتلك الأداة قد تستطيع أن تبدع بدونها ولكن ذلك عادة لا يسمى إبداعا.

إن فصل العملية الإبداعية عن ناتجها المعلن: في شكل معروف من التشكيل المحكى أو المسموع أو المرئي، له فضل التعرف على الطبيعة البشرية في جوهرها المبدع بذاته.

"كل إنسان هو مبدع بما هو إنسان، حتى لو لم ينتج ناتجا يسمى إبداعا أصلا".

إن الإبداع يكون إبداعا حتى لو لم تصحبه إنجازات محددة معلنة، جديدة أو مضافة.

إن مسار النمو الذاتى ليس إلا إعادة تشكيل المادة الجينية بما أتيح لها من مناهج تربية سلوكية تسمح بهذا التشكيل المتبادل طول الوقت مع ما يصلها من معلومات وخبرات من خارجها (المحيط).

من ذا الذى يستطيع أن يمتدحني أن أشاهد قرص الشمس مختلفا في كل مرة بحيث أعتبرها شمسا جديدة تماما كل صباح، إن معايشتي لكل شروق باعتباره خبرة جديدة تكفى لدخولى نادي

المبدعين حتى لو عجزت عن صياغة ذلك في قصيدة معلنة.

على التركيز على أن الحرية فيما يخص العمل الإبداعي هي ما يتصل بحرية التعبير أو حرية النشر هو تجاوز لمفهوم أعمق للحرية يشمل الحركة والمرونة والجدل والمخاطرة والمسئولية جميعا.

إن الحرية الضرورية لحيوية العملية الإبداعية عبر الحرية اللازمة لإعلان النتائج الإبداعي.

الخطر هو أن يختزل مفهوم الحرية إلى عملية ذاتية داخلية أكثر منها ممارسة طليقة معلنة تسمع بالحوار والنقد

لا توجد حرية في فراغ. الحرية لا تتواجد إلا في مواجهة آخر حقيقي، والآخر لا يتواجد إلا إذا حل في وعينا كيانا منفصلا عنا، مختلفا فعلا، وليس ادعاء

إن الزعم بأن حريتك تنتهي عند بداية حرية الآخرين هو زعم أقرب إلى التسوية التي تحدد منطقة محايدة بين الطرفين، وهو زعم يعلن فض الاشتباك أو هدنة دائمة متجددة، وهذا أبعد ما يكون عن مناخ تنشيط الحرية واختبارها بالحوار الخلاق

. إن حريتك لا تبدأ إلا وهي تتصارع جدلا مع حرية الآخر. هذا النوع من الصراع، ليكون دليل حرية، لا ينتهي بمقاتل ومقتول. إنه ينتهي بتخليق آخرين مختلفين إبداعا نتيجة إثراء كل منهما للآخر باحتواء إبداعي متبادل

في مجال الحديث عن الحرية

أنت تحلم، وتتغير، وتتذوق الأكل بشكل آخر، في حين أنك لا تلعب الموسيقى أو تكتب الشعر أو الرواية، ولكنك مبدع بالضرورة. من ذا الذي يستطيع أن يمنعني أن أشاهد قرص الشمس مختلفا في كل مرة بحيث أعتبرها شمسا جديدة تماما كل صباح، إن معاشتي لكل شروق باعتباره خبرة جديدة تكفي لدخولي نادي المبدعين حتى لو عجزت عن صياغة ذلك في قصيدة معلنة.

إبداع الذات في خبرات التصوف في رحاب الحق سبحانه، سعيا إلى وجه العدل تعالي، كدحا للقاء المحيط احتواء، هو نوع من العملية الإبداعية الذاتية الخلاقة

الخلاصة:

إن الاقتصار على التركيز على أن الحرية فيما يخص العمل الإبداعي هي ما يتصل بحرية التعبير أو حرية النشر هو تجاوز لمفهوم أعمق للحرية يشمل الحركة والمرونة والجدل والمخاطرة والمسئولية جميعا.

إن الحرية الضرورية لحيوية العملية الإبداعية غير الحرية اللازمة لإعلان الناتج الإبداعي.

إن حرية العملية الإبداعية هي ممارسة جدلية مرنة، لها مواصفات خاصة، ليس من بينها التقديس أو كسر الحدود.

ثمَّ خطر يمكن أن يترتب على هذا التركيز على هذا المفهوم للحرية الخاصة بعملية الإبداع أكثر من العمل على ضمان حرية إعلان ناتجها، ذلك الخطر هو أن يختزل مفهوم الحرية إلى عملية ذاتية داخلية أكثر منها ممارسة طليقة معلنة تسمح بالحوار والنقد. لا توجد حرية في السر بصفة دائمة. ليس فقط لأن الحرية هي موقف مواجهي بالضرورة، ولكن لاحتمال الانخداع بما لا يختبر. إن سرية الحرية تجعلها بعيدة عن الاختبار بما يعرضها أن تفقد في النهاية فرصة التحقق والمراجعة.

أيضا: لا توجد حرية في فراغ. الحرية لا تتواجد إلا في مواجهة آخر حقيقي، والآخر لا يتواجد إلا إذا حل في وعينا كيانا منفصلا عنا، مختلفا فعلا، وليس ادعاء. يحل في وعينا لنحسن التعرف عليه منفصلا، لا توجد حرية بشرية إلا في مواجهة "آخر". سواء بالحوار، أم بالصراع، بالاتفاق أم بالاختلاف.

إن الزعم بأن حريتك تنتهي عند بداية حرية الآخرين هو زعم أقرب إلى التسوية التي تحدد منطقة محايدة بين الطرفين، وهو زعم يعلن فض الاشتباك أو هدنة دائمة متجددة، وهذا أبعد ما يكون عن مناخ تنشيط الحرية واختبارها بالحوار الخلاق. فض الاشتباك هذا يلغي حركية الحرية من أساسها. إن حريتك لا تبدأ إلا وهي تتصارع جدلا مع حرية الآخر. هذا النوع من الصراع، ليكون دليل حرية، لا ينتهي بمقاتل ومقتول. إنه ينتهي بتخليق آخرين مختلفين إبداعا نتيجة إثراء كل منهما للآخر باحتواء إبداعي متبادل، يتأكد أكثر وهما مفترقان. الحرية التي تتم بالحذف، أو بالانسحاب، أو بالتسوية الماسخة، هي حرية منقوصة أو معكوسة.

إنه في مجال الحديث عن الحرية لا توجد محاذير مطلقة، ولا مقدسات ثابتة. مع أن الحرية لا تزدهر إلا في مواجهة المحاذير والسدود، في الداخل والخارج، تواجهها لتخرقها فتحتويها، لا تستسلم لها، ولا

تتسحب أمامها، وهي حتى لا تحطمها فتخف وتطفو هلامية القوام على أنقاضها. إن المحاذير والسدود هي التي تجعل لحرية زحما متفجرا خلافا.

في مجال الإبداع، تبدأ الحرية من الداخل للخارج، كما تتدعم من الخارج للداخل باستمرار. نفس التبادل بين الداخل والخارج تتنامى فيه كل من القيود والقهر باضطراد

الخطر الأكبر يتمثل في احتمال أن ينتقل قهر الخارج المعلن الذي يمكن رفضه واختراقه وتجاوزه. إلى قهر الداخل الخفي المستسلم المدعى للحرية. إن الرقيب الداخلي قد يكون أعمى وأقسى من كل الرقباء الخارجيين.

أخيرا، فإن الحرية ليست قيمة إيجابية في ذاتها بشكل مطلق، فحرية الجنون، إذا لم نلحق بها لنحول مسارها إلى مشروع إبداع، قد تكون تدميرية للذات أو للآخرين، وحرية الطفل لا تضمن أى بناء قادر على الاستمرار بما هو.

كل هذه المحاذير تنبه إلى أن حرية العملية الإبداعية، هي التمهيد الضروري (وليس البديل) لممارسة الحرية إبداعا بما يميز الكائن البشرى بحضور مستويات وعيه "معا" في جدل مع "الآخر" أبدا.

ثم تنويه أخير لا مجال لتفصيله هنا يقول : إن الحديث عن حرية الإبداع (عملية، ونتاجا) غير الحديث عن حرية الشخص الذي أفرز إبداعا ما (لا أصفه دائما بالمبدع طول الوقت). إن حرية الإبداع تتكون وتنشط وتتحرك وتنجز عبر ذات بشرية ما، حتى لو كان صاحبها يتصف في الحياة العادية بصفات هي أبعد ما تكون عن الحرية: حركية وسماحا وجدلا ومسئولية وأخلاقا جميعا.

لكن هذا حديث آخر.

**** * * * * *

- [1] أصل المقال كان بعنوان "تعليم تلقيني.. وسلطات قامعة عن الحرية والإبداع والقهر الداخلي" مجلة وجهات نظر - نوفمبر 1993

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhaw/RakD280320.pdf>

*** ** *

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيقا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2020 1 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الصدار السابع)

الشبكة تطفئ شمعها التاسعة عشر وتدخل عامها العشرين من التأسيس

19 عاما من الضج... 17 عاما من التواحل "

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

لا توجد محاذير مطلقة، ولا مقدسات ثابتة. مع أن الحرية لا تزدهر إلا في مواجهة المحاذير والسدود، في الداخل والخارج، تواجهها لتخترقها فتحتويها، لا تستسلم لها، ولا تنسحب أمامها، وهي حتى لا تحطمها فتخف وتطفو هلامية القوام على أنقاضها

الخطر الأكبر يتمثل في احتمال أن ينتقل قهر الخارج المعلن الذي يمكن رفضه واختراقه وتجاوزه. إلى قهر الداخل الخفي المستسلم المدعى للحرية. إن الرقيب الداخلي قد يكون أعمى وأقسى من كل الرقباء الخارجيين.

إن حرية الإبداع تتكون وتنشط وتتحرك وتنجز عبر ذات بشرية ما، حتى لو كان صاحبها يتصف في الحياة العادية بصفات هي أبعد ما تكون عن الحرية: حركية وسماحا وجدلا ومسئولية وأخلاقا جميعا.